بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنّ الحمد لله .. نحمده ونستعينه ، ونستهديه ، ونستغفره .

ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .. مَن يهدِ الله فلا مضل له ، ومَن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. له المُلك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير .

وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ، وصفيه وحبيبه ، وخيرته من خلقه .. بعثه الله على حين فترة من الرسل . فبلّغ الرسالة وأدّى الأمانة .. ونصح للأمة وجاهد فى الله حق جهاده .. وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

فاللّهم صَلِّ عليه وعلى آله وصحبه ، ومَن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ، وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (٢) .

---

(١) آل عمران : ١٠٢ (٢) النساء : ١

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (١) .

وبعد ..

مِن الناس مَن ينكر وجوب العمل بالسُنَّة ، ويرى الاكتفاء بالقرآن الكريم .. ونسى هؤلاء - أو تناسوا - قول الرسول ﷺ : « لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ، فيقول : لا ندرى ، ما وجدنا فى كتاب اللّه اتبعناه » (٢) .

وقوله صلى اللّه عليه وسلم : « أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن اللّه لم يحرِّم شيئاً إلا ما فى هذا القرآن ، ألا وإنى - واللّهِ - قد أمرتُ ووعظتُ ، ونهيتُ عن أشياء ، إنها لمثل القرآن أو أكثر » (٣) .

أى فى العدد أو التفصيل والوضوح كأحكام الصلاة والزكاة بالنسبة للأمر المجمل بوجوبهما ..

ومِن الناس مَن ينكر المعجزات الحسية التى جاءت بها كتب السيرة - إن لم يكن ينكر أغلبها - بحُجَّة تحكيم العقل ، وأن الناس قد درجوا - من وحى العاطفة - على إضفاء الكثير من المبالغات على عظمائهم ، وأفاضوا فى اختراع المواقف والأحداث لهم !!

حتى لقد طالعنا فى بعض الصحف (٤) إنكاراً للمعجزات الثابتة فى حادثة الهجرة .. ورأينا مَن يقول : إن الرسول ﷺ لم يخرج على المتربصين به من باب

---

(١) الأحزاب : ٧٠ - ٧١ (٢) رواه أبو داود . (٣) رواه الترمذى .

(٤) انظر جريدة الجمهورية - العدد ١١٥٩٥ - فى ٢٨من سبتمبر سنة ١٩٨٥ م (١٣ من المحرّم سنة ١٤٠٦ هـ) ، والعدد ١١٨٠٨ - فى ٢٧ من إبريل سنة ١٩٨٦ م (١٨ من شعبان سنة ١٤٠٦ هـ) . وراجع مجلة « التوحيد » - السنة الرابعة عشرة - العدد ١٢ - فى ذى الحجة سنة ١٤٠٦ هـ (أغسطس سنة ١٩٨٦ م) .

الدار ، ولم ينثر التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو قول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ (١) ..

« وإنما خرج صلى الله عليه وسلم - على زعمهم - من خلف البيت وتسوَّر جدار فنائه الخلفى ، وكان لديه جارية جعلها تقف بجانب الجدار ، فوضع قدمه الشريفة على كتفها ونزل من الجانب الخلفى ، ثم ألقى على رأسه رداءً وأخذ طريقه » !!

ورأينا الكاتب نفسه .. ينسب نجاته - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه فى الغار إلى الحيلة وأعمال التمويه ، وليس إلى نصر الله تعالى له وتأييده إياه ، فيقول : « ولكن الرسول - ﷺ - وصاحبه وجدا فى طريقهما إلى الغار شجرة ثمام - وهو شجر ضئيل قصير - فقال الرسول لصاحبه : خذها يا أبا بكر فاقتلعها ، فلما دخلا الغار وضعها على فوهته ، فكان مَن يراها يظن أنها شجرة قديمة ، وأن مَن يدخل الغار لا يستطيع دخوله إلا إذا ثنى فروعها » !!

فى حين أن الله تعالى يقول : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ (٢) .

وأخيراً - وليس آخراً - رأيناه ينسب حديث سراقة وغوص قوائم جواده ثلاث مرات ، إلى المبالغات التى اخترعها الناس فيقول : « أما سراقة .. فإن جواده حقاً كبا به وسقط هو من فوقه ، لأنه لطمعه فى الجائزة الثمينة من قريش كان يجهد الجواد ، فلما كبا به تطيَّر .. أما أن يغوص فى الرمال إلى بطنه فإن هذا يقتضى ألا ينهض الجواد إلا بعد مشقة وطول زمن حتى يخلصه من الرمال ، وبهذا يبعد النبى وأبو بكر عنه » !!

بينما نجد قصة غوص قوائم جواد سراقة - وهى إحدى المعجزات التى أيَّد

---

(١) يس : ٩ (٢) التوبة : ٤٠

اللّه بها نبيه محمداً ﷺ - قد جاءت فى أعلى درجات الصحيح ، حيث اتفق عليها البخارى ومسلم ، وما اتفق عليه الشيخان يكون فى أعلى درجات الصحيح كما اتفق على ذلك علماء مصطلح الحديث ..

* * *

يروِّجون لهذه المزاعم وأمثالها .. فى حين أن ظهور المعجزات الخارقة للعادة على أيدى الأنبياء - كما هو معلوم - ليس بمستنكر عند الفلاسفة .. لأن علاقة النفس بالبدن - عندهم - إنما هى بالتدبير والتصرف لا بالحلول والانطباع .. وقد ثبت تأثيرها فى المواد البدنية ، كما نشاهد أن الإنسان يحمر عند الخجل ، ويصفر عند الوجل ، ويتسخن عند الغضب ، وأنه يسقط من الموضع العالى إذا كان كثير العرض ، ولا يسقط من الموضع السافل إذا كان المشى فيه أقل عرضاً من الموضع العالى ..

فإذا كانت إرادات النفس وتصوراتها مؤثرة فى بدنها - مع عدم الحلول والانطباع فيه - فكيف يُستبعد أن تكون بعض النفوس القدسية قوية ، تتصرف بمجرد الإرادة والتصور ، بلا استعمال آلة فى أجسام أخرى غير بدنها ، بل فى كلية العناصر ، سيما العنصر الذى يكون أشد مناسبة لمزاجه ، ويكون هذا العالم بمنزلة بدن منقاد له فى حركاته وسكناته .. فتحدث بإرادته فى الأرض رياح وزلازل وحرق وغرق وهلاك أشخاص ظالمة ، وخراب مدن فاسدة ، وانفجار المياه من الأحجار ، وغيرها من الخوارق .. فكيف يُستنكر مثلها من النبى ﷺ ؟

فإذا ما ظهرت المعجزة على يد مدَّعى النبوة ، خلق اللّه العلم الضرورى بصدقه قطعاً - على ما جرت به العادة - ولا تنافيه الاحتمالات الصرفة ، والتجويزات العقلية المحضة ، لأنها تنافى العلوم العادية الضرورية القطعية ..

ونسوق مثالاً : إذا ادَّعى رجلٌ فى مجلس ملك بمشهد الجم الغفير : أنى رسول هذا الملك إليكم ، وطالبوه بالحُجَّة فقال : حُجَّتى أن الملك يخالف عادته - لتصديقى - إذا طلبتُ ذلك منه .

ثم طلب من الملك : أنْ خَالِف عادتك وقم عن سريرك ثم اقعد ، وافعل هكذا مرات ثلاثة ، ليذعن الحاضرون بأنى رسولك .

فإذا قَبِل الملك ، وفعل كما طلب هذا المدَّعى ، كان ذلك الفعل - من الملك - نازلاً منزلة تصديقه ، ويحصل للحاضرين العلم الضرورى بصدقه بلا ارتياب .

أما إذا كان الملك ظلوماً كذوباً ، فإنه لا يبالى بإغواء رعيته والاستهزاء برسله ، ولا يلتفت إلى الاحتمالات العقلية الصرفة .

والتواتر - فى خبر المعجزة - إذا كان جامعاً للشروط المفصّلة فى علم الأصول ، فلا شك أنه يفيد العلم الضرورى بما تواتر الإخبار عنه ، إذ لا سبيل إلى العلم بالبلاد البعيدة والأشخاص الماضية ، سوى التواتر .

فمَن شاهد معجزة نبى يحصل له العلم بصدق ذلك النبى بالمشاهدة ، ومَن لم يشاهدها ووصل إليه خبر تلك المعجزة بالتواتر الجامع لشروطه ، يحصل له العلم أيضاً .. فحصول العلم لمن لم يشاهد المعجزة ممكن البتة .

ومع هذا .. وجدنا من الناس مَن ينكر المعجزات الحسية التى جاءت بها كتب السيرة وتواتر الأخبار عنها ، بحُجَّة تحكيم العقل ، مع أن العقل كثيراً ما يقصر عن إدراك الكثير من الأمور المحسوسة والملموسة !!

* * *

نحن نؤمن بالمعجزات الحسية وإمكان وقوعها .. وأن المعجزة هى الأمر الخارق للعادة الذى يظهره الله تعالى على يد نبى مرسل ، لتقوم دليلاً على صدق دعوته ، وبرهاناً على حقيقة رسالته .

ومن شرط المعجزة : أن تكون مبنية على الظهور والإعلان ، لأنها حُجَّة الأنبياء على دعوى النبوة ، فلا بد من إظهارها وإعلانها صريحة جلية أمام المكذِّبين الجاحدين حتى يُسلِّموا لأنبيائهم ويدخلوا فى دينهم .. كما أنها يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات ، مهما بدت هذه الخوارق غريبة ومستبعدة .

ولقد جرت سُنّة الله - سبحانه - أن يؤيد كل رسول من رسله بمعجزة خارقة للعادة ، وخارجة عن حدود المألوف للناس ، حتى يحمل المعاندين المكابرين على الإيمان بهم ، والإذعان لهم ، والتسليم بكل ما جاءوا به من هداية وإرشاد .

كان النبى يُبعث فى قومه ، فيصدع بالدعوة إلى الله ، فيستجيب له مَن شرح الله صدره لدعوته ، ويكذّب به مَن جعلوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا صيحة السماء التى تنادى عليهم أن هبوا من رقدتكم ، وأفيقوا من غفلتكم ، وتحرروا من قيود شهواتكم وأهوائكم .

ويتمادى المكذّبون فى المكابرة والعناد .. فإذا بهم يرمون أنبيائهم بالكذب ، ومن بعده يرمونهم بالسحر تارة وبالجنون أخرى .. قالوا كل ذلك وأكثر منه فى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .. وطالبوهم بالآيات الدالات على صدق رسالاتهم .. فما كان من الأنبياء إلا أن لجأوا إلى الله سبحانه ، يطلبون منه أن يؤيدهم بالآيات من عنده ، فاستجاب لهم ربهم ، وأظهر على أيديهم من المعجزات ما يشهد لهم بصدق دعوتهم .

وتحدى الأنبياء أقوامهم أن يأتوا بمثل ما أتى الله به على أيديهم من خوارق العادات ، فعجزوا كل العجز .. وكان نتيجة ذلك أن آمن بهم العقلاء ، واستمر متشبثاً بالكفر الحمقى من الجهلاء والسفهاء .

وتشاء حكمة الله تعالى ، أن تكون معجزة كل نبى من جنس ما برع فيه قومه ، لتكون أبلغ على التحدى ، وليكون العجز عن معارضتها أبلغ فى الدلالة على كونها آية من عند الله على صدق مَن ظهرت على يده من الأنبياء .

كان السحر منتشراً فى عصر موسى عليه السلام ، فكانت معجزته فى عصاه :

يقول الله تعالى : ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ (١) .

---

(١) الأعراف : ١٠٦ - ١٠٨

ويقول جل شأنه : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَ الجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ البَحْرَ ، فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ ﴾ (١) .

ويقول جَلَّ وعلا : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الحَجَرَ ، فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ، كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ ، وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

وكانت العلوم زاهرة فى عصر سليمان عليه السلام ، فكانت معجزته فى تسخير الرياح والجن له ، ومعرفته للغة الوحش والطير :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ ، وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْاْ عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ (٤) .

---

(١) الشعراء : ٦١ - ٦٣ (٢) البقرة : ٦٠

(٣) الأنبياء : ٨١ - ٨٢ (٤) النمل : ١٦ - ٢٢

وكان الطب مزدهراً فى عصر المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، فكانت معجزته هى إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى .. بل ويصنع طيراً من الطين فينفخ الله فيه الروح ..

يقول الله تعالى : ﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ، أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونَ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وكانت البلاغة سائدة فى عصر النبى ﷺ ، فكانت معجزته الكبرى هى القرآن الكريم ، الذى تحدى به الجن والإنس فى قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٢) .

ولا يمنع كون القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للرسول ﷺ من وقوع الكثير من المعجزات الحسية .. ومع هذا نسمع مَن ينادون بتحكيم العقل فى شأن هذه المعجزات دون سواها .. فلماذا لم يحتكموا إلى عقولهم إزاء معجزات الأنبياء السابقين ما دام تحكيم العقل هو ديدنهم ؟!

لماذا يؤمنون ويصدِّقون بوقوع المعجزات الحسية للأنبياء السابقين ويجحدون وقوعها لنبى الإسلام صلى الله عليه وسلم ؟!

من أجل هذا كان هذا الكتاب ..

وقد جعلنا عنوان الفصل الأول من فصوله الستة : ما قبل البعثة .

والفصل الثانى : النبوة الخاتمة .

---

(١) آل عمران : ٤٩ (٢) الإسراء : ٨٨

والفصل الثالث : الرسول فى المدينة .

والفصل الرابع : صاحب المعجزات الباهرة .

والفصل الخامس : صاحب الأخلاق العظيمة .

والفصل السادس : خاتمة المطاف .

وتحدثنا فى هذا الكتاب عن بعض الجوانب المشرقة التى حفلت بها سيرة الرسول ﷺ مع التركيز على المعجزات الحسية التى ينكر وقوعها المنكرون .

ولا يفوتنا أن نذكر : أننا فى سردنا للحوادث التاريخية التى حفلت بها السيرة العطرة للرسول ﷺ ، قد اعتمدنا - أساساً - على أمهات الكتب الصحيحة كالبداية والنهاية لابن كثير ، والسيرة النبوية لابن هشام ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، وأسد الغابة لابن الأثير .

كما اعتمدنا فى الشواهد - التى استشهدنا بها من الأحاديث النبوية الشريفة - على الجامع الصحيح للإمام البخارى ، وصحيح مسلم ، إلى جانب الكتب الصحاح الأخرى ، وكلها - والحمد لله - من المراجع الهامة التى تحظى بثقة المؤرخين واحترام الدارسين .

والله من وراء القصد .. وهو الموفق والمستعان .

القاهرة فى الثلاثاء ٢٨ من صفر سنة ١٤١١ هـ

الموافق ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٩٠ م .

محمد الأنور أحمد البلتاجى

* * *